الدكتور محمد حقي– كلية الآداب من جامعة السلطان مولاي سليمان ببني ملال المغرب

شارع ابن خلدون صندوق البريد 524 أولاد حمدان بني ملال المغرب 23000

0670232664 (+212)

haqqim@hotmail.com

الموقع الرسمي للدكتور محمد حقي- www.drmohamadhakki.net

التصور الموحدي للإصلاح

يمكن اعتبار التجربة الموحدية أكبر تجربة إصلاح في الغرب الإسلامي حتى القرن 19م، لما تميزت به من التجديد والجذرية والشمولية والتغلغل في كل مناحي الحياة من عمارة وعلم وتعليم وتقاليد الموت والمرض ... وقد اعتاد من يدرسونها؛ مغاربة ومشارقة أمثال عبد المجيد النجار وعبد الله العلام، التركيز على الأساس الذي وضعه ابن تومرت وتحديد مكوناته وجذوره المعرفية والمذهبية. لكنهم توقفوا عند هذا الحد و لم يبحثوا عن مدى استمرارية هذه الإصلاحات مع خلفائه وحتى إن فعلوا سلموا مبدئيا بكونها استمرارا حرفيا لما وضعه المؤسس، متجاهلين ما عرفته من تغيرات وتطورات في عهودهم. وكانت رسائل الخلفاء التوجيهية التي تصدر عنهم بين الحين والآخر؛ تبعا للظروف ولمستجدات الأحداث، الوسيلة الأساسية لتبليغها إلى السكان. وكان الحرص شديدا على تبليغ أفكارهم إلى كل مكونات المجتمع، حيث ترسل الرسائل باسم الطلبة؛ حراس المذهب، ويطالبون بتبليغها للأشياخ ثم العلماء والعامة والقبائل في البوادي، كما خلقوا؛ منذ بداية دولتهم، نظام بريد قوي يرتكز على الرقاصة والذي خضع لتنظيم دقيق وإصلاح مستمر، كما ستبين رسالة فيما بعد.

وقد اخترنا أن نبحث عن خصائص التصور الموحدي للإصلاح وكذلك التطور الذي عرفه انطلاقا من سبع رسائل ديوانية يمتد زمانها ما بين سنة 518هـ/1123م وسنة 626هـ/1229م على امتداد فترات حكم المؤسس ابن تومرت وأربعة خلفاء ثلاثة منهم من عهد القوة (عبد المؤمن– أبو يوسف– المنصور) ورابع (المأمون) من عهد الصراع والاضطراب. وقسمنا الموضوع إلى ثلاثة محاور:

*عناصر الثبات في الإصلاح الموحدي: الهيكل الإصلاحي الموحدي

*عناصر التغير والتجدد في الإصلاح الموحدي: الواقعية في الإصلاح

*خصائص التصور الموحدي للإصلاح

1- الثبات في الإصلاح: تأكيد على الفكر التومرتي

اعتمدنا في هذا الجانب على ثلاث رسائل:

- رسالة وصايا المهدي ابن تومرت [1]
- رسالة الفصول أو وصايا لأهل بجاية للخليفة عبد المؤمن [2]
- رسالة الخليفة المأمون حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [3]

فالرسالة الأولى صدرت عن مؤسس الحركة الموحدية في وقت اشتداد الصراع الموحدي المرابطي، وفي وقت تكوين الحزب الموحدي وتربية الأتباع في أحد سنوات الفترة الممتدة ما بين 518هـ/1123م و524هـ1129م، وكان طبيعيا بحكم متطلبات المرحلة أن تتضمن المحاور الكبرى للتوجه التومرتي ونظرته إلى إصلاح الأوضاع. وأهم الأفكار التي جاءت بها الرسالة ما يلي:

- تحريم مساعدة المرابطين والخضوع لهم
- الدعوة إلى قتال من تمسك بطاعة المرابطين
- الحض على المثابرة في قتال المرابطين
- القتال من أجل رفع كلمة الله
- النصر رهين بإخلاص النية لله
- دعوة أتباعه إلى عدم الاهتمام بانتقادات المرابطين لهم
- ضرورة تعلم التوحيد لتحقيق الخلاص
- تعلم الصلاة والحفاظ عليها
- الحفاظ على الحدود ومكارم الأخلاق (المظالم/ المحارم/ التسامح/ الصلح/ الفساد/ الإسراف/ الأموال / الخيانة/ الغدر/ الحسد/ الغلول/ الإقبال على القتال)
- اقتسام الغنائم حسب القواعد الشرعية وتجنب الغلول

---

[1]- رسائل ديوانية موحدية، تحقيق أحمد عزاوي، نيت المغرب، الرباط، 2006، ص.(06-11).
[2]- نفسه، ص.(111-119).
[3]- رسائل موحدية(مجموعة جديدة)، جمع وتحقيق أحمد عزاوي، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1995، ج1، ص.(94-97).

- تجنب الخمر

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

- نصر الموحدين مضمون لأنهم على الحق

- ضلال وغي المرابطين

- إظهار حسن حال الموحدين

إذا تمعنا في هذه المحتويات يتضح جليا أنها تلخص محاور الإصلاح الموحدي انطلاقا من العقيدة التوحيدية ومرورا بالحفاظ على العبادات وخاصة الصلاة والتزام مكارم الأخلاق والحسبة ثم فضح غي وضلال المرابطين وضرورة قتالهم. فنحن مع الإصلاح الديني العقدي والأخلاقي والسياسي. وسوف تصبح هذه المحاور أساس تدخل الخلفاء الموحدين فيما بعد.

والرسالة الثانية صدرت عن الخليفة الأول عبد المؤمن من مدينة الرباط أو بالأحرى من مدينة المهدية[4]، ووجهت إلى أهل بجاية أو بشكل أدق إلى المجال التابع لدولة بني حماد الصنهاجية والذي انضم إلى الدولة الموحدية عام 547هـ/1152م، وتسمى رسالة الفصول أو وصايا لأهل بجاية. وقد صدرت عام 556هـ/1161م مباشرة بعد عودة عبد المؤمن من فتح إفريقية ومروره من هناك حيث عرف مدى الرفض الذي يقابل به بعض سكانها الدعوة الموحدية وفشله في إقناعهم بالعدول عن ذلك (وارد في فقرات الرسالة). وجمعت الرسالة مجموعة من العناصر نجملها فيما يلي:

- ديباجة على النمط الموحدي(عبارة التوحيد-الصلاة على النبي-تبجيل المهدي)

- الإخبار بحسن حال الموحدين

- تحديد مهام الموحدين (إحياء السنة/ تثبيت الدعوة/ تطهير الأمة/ تعليم الهدي)

- رسالة المهدي إحياء الدين وتبليغ الدعوة بوسائل مختلفة

- انقسام الناس بين التأييد والمعارضة للدعوة الموحدية

- تعليم الخليفة لأهل بجاية واستمرار بعضهم في عاداته

- أسس عمل الخليفة (تعليم التوحيد/ قراءة وتعليم كتاب التوحيد للمهدي(المرشدة) بالبربرية لمن يتقنها باستمرار)

- أمر الطلبة بحفظ العقائد وقراءتها المستمر

4- كانت بمكان الرباط قصبة تسمى المهدية منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، انظر ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، دار الأندلس، بيروت، 1964، ص. 446 وياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1995، جزء 5، ص.231 وابن عذاري، البيان المغرب (قسم الموحدين)، دار الثقافة، البيضاء، 1985، ص. 43.

- إلزام العامة بقراءة العقيدة (الرجال/ النساء/ الأحرار/ العبيد/ كل مكلف)

- إلزام الناس بإقامة الصلاة وقتل المصر على تركها

- إلزام الناس بأداء الزكاة

- منع الرب ومعاقبة من يشربها أو يعصرها

- تحريم الملاهي

- كشف ما يحدث من أكل أموال الناس بالباطل

- فضح المتقاعسين عن الجهاد

- ضبط القبائل المتناحرة وإلزامها بالأحكام

- كتاب المهدي مرجع أساسي لتحديد الخروقات

- تطبيق الحدود على المخالفين سيرا على السنة التي سنها المهدي في بداية دعوته

- الدولة لا تحافظ على من لم يحفظ الدين

-الإخبار بحدوث التمييز ببعض الأماكن اقتداء بالمهدي

- تعيين بعض الطلبة لتعليم التوحيد وتحفيظ بعض القرآن

- التزام نهج المهدي في العمل

- إمضاء الحكم في القبائل المعارضة

- الفصل شامل لكل الناس.

ولن نحتاج إلى التأكيد على مدى شمولية هذه الرسالة في ميدان الإصلاح الموحدي، وهذا يعطيها صفة الدستور أو الميثاق.

وثالثة الرسائل خاصة بالخليفة المأمون وتعرف برسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي غير كاملة كما أن تاريخها غير محدد، لكن يرجح أنه في السنوات الأولى لحكمه(624هـ/1227م-629هـ/1132م) وبشكل أكثر دقة بعد عام 626هـ أي بعد الإعلان عن إلغاء المهدوية. وأهم الأفكار التي وردت في الجزء المتبقي:

- ديباجة جديدة (لا ذكر للمهدي)

– دعوة لالتزام الشرع وترك البدع

– الحفاظ على الصلاة الجماعية في أوقاتها وخاصة الصبح والعشاء في كل أجزاء البلاد

وهذه أفكار لا تبتعد عن الهموم العامة للموحدين.

وإذا تتبعنا ما ورد في هذه الرسائل بالرغم من تباعدها الزمني نجده يشكل الهيكل الأساسي للرؤية الإصلاحية للموحدين بداية بالعقيدة (التوحيد) ومرورا بالعبادات (تأتي على رأسها الصلاة وما يصلحها ويتبعها) والأخلاق ومكارمها ووصولا إلى السياسة التي يلخص التعاطي معها في مبدإ الحسبة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) الذي ركز في البداية على حرب المرابطين وإظهار عيوبهم ثم صار يتوجه إلى المخالفين للنظام الموحدي والخارجين عليه والموظفين الفاسدين. وهذه أمور اعتاد الحكام الموحدون التأكيد عليها في المناسبات الحاسمة مثل بيعة الخلفاء الجدد وانضمام مناطق جديدة إلى الدولة وإخضاع متمردين وعودتهم إلى أحضان الدولة. فهي بمثابة لازمة للنظام السياسي الموحدي وتأكيد على الفكر التومرتي الذي كان الإطار السياسي والإيديولوجي للدولة. لكن الإصلاح لا يتوقف عند هذا الحد إذ اعتمدت إصلاحات أخرى أكثر ارتباطا بالواقع وإظهارا للتجدد الذي يعرفه باستمرار وهي التي ستكون موضوع الحديث في الفقرة الموالية.

2– واقعية الإصلاحات: التجدد والتغير

تعتمد الفقرة على أربع رسائل لكشف عنصر التجدد الذي ميز الإصلاحات الموحدية وربطها بالواقع اليومي للسكان. وتمتد هذه الرسائل على عهود الخليفة الأول عبد المؤمن وخليفته أبي يعقوب يوسف وحفيده يعقوب المنصور والخليفة إدريس المأمون، وهي:

ـ رسالة عبد المؤمن لأهل إشبيلية عام 543هـ/1148م[5]

ـ رسالة أبي يعقوب يوسف في تنفيذ أحكام القتل [6]

ـ رسالة المنصور لأهل إشبيلية حول الخمر [7]

ـ رسالة المأمون حول المهدوية [8]

صدرت الرسالة الأولى عن عبد المؤمن ومن إنشاء كاتبه المميز أبي جعفر أحمد بن عطية، ووجهت إلى أهل إشبيلية قبل أن تعمم على كل البلاد. وقد كتبت بتينمل مركز الموحدين الروحي ومزار المؤسس ابن تومرت أثناء زيارة الخليفة المعتادة وبنائه لمسجدها. وجاءت مباشرة بعد نجاحه في اختبار الثورات العامة التي تفجرت بالمغرب والأندلس عقب فتح مدينة مراكش لما

---

[5]- رسائل ديوانية(مجموعة جديدة) ج1، ص.61_ 71 وابن القطان، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، ص.150_167.
[6]-نفسه، ص.94_97.
[7]-رسائل ديوانية موحدية، ص.188_190.
[8]-رسائل ديوانية(مجموعة جديدة) ج2،ص.382-383.

يقرب من السنتين وكادت أن تعصف بالدولة. وتحدد الرسالة سبب صدورها في الخروقات التي عاينها الخليفة أو نقلت إليه في مراكش. وأهم الأفكار التي حملتها:

ـ تزكية المهدي ابن تومرت

ـ عرض بعض خروقات الطلبة (الحكم بالهوى/ القتل/ خرق الشرع/ الشدة/ الظلم/ الزور/ ضرب الناس/ أكل الأموال)

ـ تبرؤ الخليفة من فرض ضرائب غير شرعية على الناس (مغارم/ مكوس/ قبالات تحجير المراسي).

ـ نهب أموال المسافرين

ـ تعجب من سكوت الطلبة عن هذه الخروقات

ـ دعوة الطلبة للإشراف المباشر على الأمور وتجنب الوسطاء

ـ التثبت قبل اتخاذ القرارات وأخذ رأي الخليفة

ـ أمر بالقبض على المخالفين وتوجيههم إلى الخليفة للتنكيل بهم

ـ ضبط سوق الرقيق والسبي ووضعه تحت إشراف الدولة

ـ تعيين أمناء أكفاء لمراقبة الخمر بشدة

ـ تكفل الدولة بمؤونة الرقاصين وإعفاء السكان منها

ـ توقيف لصوص مخازن الدولة

ـ تعميم الرسالة على كل بلاد الموحدين

ـ الإخبار بوضع الخليفة علامة مميزة بخط يده على الكتاب حتى يعرف بها

ـ الدعوة إلى تعميم الكتاب على كل ساكنة إشبيلية حضرا وبدوا

ـ هدف الكتاب حماية مصالح الناس والرفق بهم

ـ ضرورة التعاون لتحقيق غرض الكتاب

ـ الكتاب نصيحة يجب الأخذ بها

ـ صدور الكتاب بسبب الخروقات التي عاينها الخليفة بمراكش

من السهل اكتشاف أن الرسالة؛ وبغض النظر عما تفصح عنه، هي دفاع قوي ورد على انتقادات وجهت إلى النظام الموحدي، ولن تكون في هذا الوقت طبعا إلا من زعماء الثوار مثل الماسي والصحراوي وعياض وأهل الأندلس وغيرهم. وهو استجابة لكثير من المطالب وتصحيح لمجموعة من الأخطاء. وإذا جمعنا محتوياتها نجد أنها تدور حول ثلاثة محاور رئيسية: الإصلاح الإداري (مراقبة الطلبة والموظفين مركزيا) والإصلاح الجبائي (ضرائب غير شرعية) وإصلاح اجتماعي أخلاقي (بيع الرقيق والسبي والخمر). ويتضح جليا أن الدولة تعمل على فرض سلطتها على مجالها الترابي والتحكم في سلوك وتصرفات مسيريه من الطلبة وغيرهم خاصة وأن توحيدها للبلاد حديث و لم يمر عليه أكثر من سنتين ثم تعرض لنكسة الثورات، مما يعني أن الدولة في شخص الخليفة تحاول فرض سلطتها الفعلية لأول مرة مما تطلب التشدد مع الموظفين وخاصة الطلبة. وكان تطوير الإدارة من الانشغالات الكبيرة للخليفة الأول إذ عمل على تكوين موظفين متخصصين ومتشبعين بأفكاره وآرائه وأسند إليهم تسيير شؤون البلاد بدل الشيوخ. واحتفظ مؤلف كتاب "الحلل الموشية" بنص في غاية الأهمية حول الموضوع جاء فيه "فيجمع الحفاظ فيه[القصر]، وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة، من المصامدة وغيرهم، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريده، فيأخذهم يوما بتعليم الركوب، ويوما بالرمي بالقوس، ويوما بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة، طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع، ويوما يأخذهم بأن يجدفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة، فتأدبوا بتلك الآداب، تارة بالعطاء، وتارة بالأدب، وكانت نفقتهم وسائر مؤنتهم من عنده، وخيلهم وعدتهم كذلك. ولما كمل له هذا المراد فيهم، عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة، وقال العلماء أولى منكم فسلموا لهم، وأبقاهم معهم في المشورة" [9]. فالرسالة تعكس جزءا مهما من مشاكل الدولة الموحدية الشابة التي وحدت البلاد منذ وقت قريب، و لم تكن تملك ما يكفي من الأطر الإدارية لتسيير البلاد، فاستعانت بأشخاص لم يتشبعوا بمبادئ الدولة وارتكبوا خروقات كثيرة عملت الرسالة على تصحيحها وبشرت بالإصلاح الإداري المقبل.

صدرت الرسالة الثانية عن أبي يعقوب يوسف ثاني خلفاء الموحدين ووجهت من مراكش إلى أخي الخليفة أبي سعيد والي قرطبة وطلبتها. وأهم أفكارها:

ـ الديباجة الموحدية المعهودة

ـ التأكيد على التزام الدولة بالكتاب والسنة

ـ ضرورة الحرص على العدل

ـ إلزام عمال الدولة بإحالة تنفيذ أحكام القتل إلى الخليفة

9-مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1979، ص.150-151.

_ التشديد على تنفيذ محتوى الكتاب

_ تعميم الرسالة على العامة والخاصة

تثير الرسالة قضية خطيرة في تاريخ دولة الموحدين وهي حد القتل (الإعدام) الذي اعتبر ميزة خاصة لها حتى أنها اتهمت بالدموية. فمنذ عهد المؤسس انتشرت المسألة بقوة وقتل الناس لأسباب لا تستجوب ذلك أو فيها خلاف في الأحكام الفقهية، وذكر ابن القطان أنه جعل القتل في ثمانية عشر صنفا [10]. وعرفت بداية الدولة مذابح جماعية بشعة ذهبت بالآلاف من المعارضين. ومن أشهرها مذبحة أهل تينمل عام 518هـ/1123م التي أودت بأرواح نحو خمسة عشر ألفا "وقتل من ذلك القبيل كل من حضر في ذلك اليوم بتينمل، وسبى حرمهم وغنمت أموالهم، فقسم أرضهم وكرومهم بين الموحدين من أصحابه"[11]، وتلتها مذبحة ميز الونشريسي في السنة الموالية[12] التي صفت المعارضين لسياسة وأفكار المهدي وأصحابه. وفي عهد الخليفة عبد المؤمن حدثت المذابح الكبيرة في كل أنحاء البلاد وذهبت بالآلاف فيما يعرف بالاعتراف عام 544هـ/1149م عقب ثورات 542هـ و 543هـ، وقد احتفظ البيدق بلائحة مفصلة للقبائل التي تعرضت لهذا الامتحان وعدد قتلاها، ومنها هزميرة ورجراجة وحاحة وإيجلي بالسوس وجزولة وهسكورة وتادلة وفازاز(الأطلس المتوسط) والرباط وغمارة وسايس وتامسنا ودكالة وهيلانة ووريكة ولجاغة ودرعة، وبلغ عدد القتلى حوالي ثلاثين ألف رجل [13]. وفي نفس الوقت قتل أفراد معزولون لأسباب مثل ترك الصلاة مع الجماعة أو عدم حضور دروس الوعظ...[14]. وترك هذا الحد للعمال والولاة والطلبة مما أثار؛ كما يبدو، معارضة السكان ومطالبتهم بالتثبت حتى لا يذهب الناس ضحية حسابات شخصية أو وشايات كيدية. وقد استجاب الخليفة عبد المؤمن لذلك فوجدناه في رسالته السابقة يؤكد على إسناد أحكام الإعدام للخليفة، لكن ورود ذلك ضمن مجموعة من المواضيع وكذلك الطريقة التي نفذ بها الاعتراف إذ ترك للعمال والولاة والطلبة في نواحيهم، يثبت استمرار الخروقات وتواصلها. وتأتي هذه الرسالة لحسم الموضوع نهائيا ومنع العمال من تنفيذ أي حكم إعدام ورفع ذلك للخليفة بالعاصمة، كما حدد الأسباب التي تبيح القتل في قتل النفس والارتداد وزنا المحصن والاستهزاء بالله [15]. وسيؤكد المنصور هذا التوجه بأن "أوصى ولاته وعماله بالرجوع إلى أحكام القضاة" [16]. ومرة أخرى نصل إلى أن هذه الرسالة تتجه نحو الإصلاح الإداري بهدف تقوية مركزية الدولة وموقع الخلفاء والحد من سلطات العمال والولاة.

والرسالة الثالثة صدرت عن المنصور من مراكش ووجهت إلى أهل إشبيلية في رمضان من عام 580هـ/1184م، وأهم مضامينها:

---

[10]-ابن القطان، المصدر السابق، ص.27 و29.

11-نفسه، ص.94، ويؤكد ابن عذاري كلامه قائلا:"وكان قتله لهزميرة تينمل سنة ثمان عشرة جمع المهدي عليهم أهل تلك الجبال، فقام بهم وقتل منهم فيما ذكروا خمسة عشر ألفا" البيان المغرب، تحقيق ليفي بروفنصال وكولان، بيروت، 1993، ج4، ص.68.

[12]-نفسه، ص.102 و ج.4، ص.68 واالبيذق، أخبار المهدي، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية، الجزائر، 1975، ص.71.

[13]-البيذق، ص.127-131.

[14]-ابن القطان، المصدر السابق، ص.29.

[15]-ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص.302.

[16]-ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، دار المنصور، الرباط، 1973،ص.217.

ـ تحديد المرسل إليهم

ـ الديباجة الموحدية المعهودة

ـ التأكيد على كون رسالة الموحدين إنقاذ الناس وتحديد مكان كتابة الرسالة

ـ انتشار شرب الرب وبيعه بالرغم من الزجر

ـ تحديد النوع المباح من قبل الدولة

ـ منع شرب وبيع الخمر كلية ومعاقبة تجاره وشاربيه

ـ ضرورة تعميم الخبر وإذاعته في الجهات

ـ أمر بتوزيع صدقات الفطر على المساكين والضعفاء.

كما هو واضح فموضوع الرسالة هو الخمر الذي حظي بمكانة خاصة في الإصلاحات الموحدية بحيث يمكن اعتباره من الثوابت فيه. وقد ورد ذكره في وصايا ابن تومرت وفي كتاب "أعز ما يطلب" حيث حرم كل أصنافه بما استشهد به من أحاديث[17] ورسالة الفصول لعبد المؤمن. لكن الموحدين يبيحون رسميا نوعا من الخمور فوجدنا رجال الدولة يشربونها ولنا فيما حصل مع محمد ولي عهد عبد المؤمن عند زيارة قبر المهدي سنة 558هـ/1165م وتسبب في عزله [18]الدليل على ذلك، وربما كان ذلك بسبب افتضاح أمره علنا وليس لشربه الخمر. كما أنه كان يقدم في الحفلات الرسمية على غرار احتفال أبي يعقوب يوسف بقدوم العرب عليه في مراكش عام 564هـ/1169م، إذ يذكر ابن صاحب الصلاة أنه "صنع ما تقدمت العادة به نهر من رب ممزوج بالماء، كلما أكلت طائفة وقامت مشت إلى موضع الخليفة رضي الله عنه وسلمت عليه ودعا لها ونهضت إلى ساقية الرب تشرب وتطرب"[19]. وحتى في الرسائل التي يرد فيها الحديث عن التحريم يتم التمييز بين النوع الحلال والنوع الحرام، فعبد المؤمن يقول في رسالة الفصول: "آمر بالنظر في الربوب وتمييزها(...)فيراق مسكرها، ويقطع منكرها، وليعمد إلى من عمل المسكر الحرام عامدا" [20]، وفي رسالتنا هذه يرد: "فإن الناس تجوزوا في أمر الرب تجوزا أغفلوا فيه الاجتهاد، ورتعوا حول حماه رتعا أوقعهم أو كاد، وتسامحوا فيه تسامحا خرق المتعارف من المأذون فيه والمعتاد" [21]. فبما يفسر هذا الأمر؟

17- باب الخمر من كتاب "أعز ما يطلب" تحقيق عبد الغني أبو العزم، مطبعة وليلي، مراكش، 1997،ص.(362-382) والمراكشي عبد الواحد، المعجب، دار الكتاب، البيضاء، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ص. 283 وابن أبي زرع، المصدر السابق، ص.173.

18- **"ظهر في تلك الحركة من جرحة محمد المخلوع وعند الانصراف منها في الطريق ما أوجب عليه إثر ذلك الخلع من شرب الخمر وظهور السكر عليه، وذلك أنه تقيأ يوما على ثيابه وأطنابه وهو راكب على فرسه في المحلة على مرآى من أشياخ الموحدين والعام من الناس الزائرين، فصح عند أبيه نكره وتخليطه وسكره فأسقط بفعله"** ابن عذاري، المصدر السابق، قسم الموحدين، ص.78-79.

[19]-المن بالإمامة، ص.344.

[20]-رسائل ديوانية موحدية، ص.115.

[21]-نفسه، ص.189.

يمكن تحديد مبررين اثنين مترابطين فرض أحدها البحث عن الثاني. أولهما شرعي كما يستشف من عبارة المنصور المقتطفة أعلاه (كلمة الاجتهاد)، ويبدو أن الموحدين أخذوا في الخمر برأي أهل العراق(الحنفية) الذي يبيح شرب بعض الأنبذة خاصة وأن مذهب الموحدين تلفيقي أخذ من مختلف المذاهب المعروفة في العالم الإسلامي وخاصة الكبيرة منها. وثانيهما متعلق بعادات المصامدة في جبل درن وسوس والذين اعتادوا شرب بعض المشروبات الروحية. وتحتفظ كتب الجغرافية بمجموعة من النصوص عن بعض أصنافها. فصاحب الاستبصار يقول عن جبل درن: "*وفيه أمم لا تحصى من المصامدة وأكثر عيشهم إنما هو من العنب والزبيب والرب، وهم لا يستغنون عن شربه لشدة برد الجبل وثلجه*" [22] وعن السوس ينقل: "*وبالسوس عسل يفوق عسل جميع الأمصار، ويلقي النبيذيون على الكيل منه خمسة عشر كيلا من الماء، وحينئذ يأتي نبيذا، وإن كان الماء أقل من ذلك بقي حلوا ولا ينحل إلا بالماء الشديد الحرارة، ولونه أخضر في لون الزمرد*" [23]. وعن نفس المنطقة كتب الإدريسي: "*وشرابهم المسمى أنزير وهو حلو يسكر سكرا عظيما ويفعل بشاربه ما لا تفعله الخمر لمتانته وغلظ مزاجه، وذلك أنهم يأخذون من عصير العنب الحلو فيطبخونه بالنار إلى أن يذهب منه الثلث ويزال عن النار ويرفع ويشرب ولا سبيل إلى شربه إلا أن يخلط بمثله ماء. وأهل سوس الأقصى يرون شربه حلالا ما لم يتعد به إلى حد السكر* "[24]. فالنصوص الثلاثة تتفق على أن المجال الموحدي الأصلي كان يعرف صناعة الرب من العنب والعسل ولا يظهر منها أنه ينتج للتصدير إلى خارج المنطقة، بل يستهلك محليا لتحمل شدة البرد. ويدافع السكان عن حلية ذلك. فالعادات المحلية دفعت المشرفين على المذهب إلى إيجاد التبرير الشرعي لكن ذلك تسبب في خروقات وخلط دفع المنصور إلى منع كل الأصناف بعدا عن الشبهة.

آخر الرسائل صدرت عن المأمون إدريس من مراكش سنة 626هـ/1229م ووجهت إلى الطلبة والأشراف والأعيان والكافة. وأهم أفكارها:

- تحديد المرسل والمرسل إليه
- تحديد مكان الإصدار
- الإعلان عن إلغاء المهدوية
- تبرير قراره بعزم المنصور على إزالة رسومها [25].
- تبرؤ ممن يدعي العصمة

---

[22] مجهول، الاستبصار، ص.211.

[23] -نفسه، ص.212.

[24] -الإدريسي، نزهة المشتاق، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد،القاهرة، ج1، ص.228.

25-يذكر المراكشي أن المنصور لم يكن يعتقد فيما يقال عن مهدوية المهدي وعصمته، وصدرت عنه عبارات فيها نوع من الاستهزاء من ذلك، وغضب على طالب استقبله وسأله عن علمه فأخبره أنه يحفظ تواليف ابن تومرت وأخبره أن ما يجب حفظه هو كتاب الله وسنة نبيه. المعجب، ص.417.

فالرسالة تمس عنصرا أساسيا في الفكر التومرتي وهو فكرة المهدوية [26]، حيث اعتبر نفسه مهديا ومعصوما وفرض على أتباعه الاعتقاد في ذلك وكان مصير كل من شك في ذلك القتل كما حصل في ميز الونشريسي [27]. ولعب هذا المبدأ دورا مهما في قبول الناس بأفكار الموحدين وتمريرها. لكن الصراعات التي عرفها الجهاز الموحدي منذ عهد محمد الناصر فيما يعرف بصراع الأشياخ والسادة والتي وصلت إلى حرب ضروس في هذه الفترة بانقسام الدولة بين خليفتين هما يحي الممثل للشيوخ والمأمون الساخط عليهم، فحاول أن يجردهم من الدعم الإيديولوجي المتمثل في تراث المهدي ابن تومرت من خلال إلغاء المهدوية كمحور أساسي.

هكذا يلاحظ أن الدولة الموحدية كانت ورشة مفتوحة للتغييرات والإصلاحات وأن مجموعة من المبادئ عرفت تطورا عبر تاريخ الدولة و لم تبق على صورة واحدة.

استنتاج: خصائص التصور الموحدي للإصلاح

من خلال المحورين السابقين يمكن رسم صورة للتصور الموحدي للإصلاح من خلال العناصر التالية:

ـ اعتبار مسألة الإصلاح (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) واجبا للخليفة يحظى بالأولوية ويحدد مدى قيامه بواجبه وتجاوب الرعية معه.

ـ استمرارية الإصلاح بحيث يكون على كل خليفة يتولى السلطة أن ينخرط في العملية كواجب شرعي واستمرارا لتقليد وسياسة خاصة للدولة. وهذا عكس الإصلاح في معظم التجارب الأخرى الذي يقتصر على فترة التأسيس ثم يصبح عرضة للإهمال بمجرد قيام الدولة والقضاء على الأنظمة السابقة.

ـ تعميم الأفكار الإصلاحية وتبليغ أوامر الخلفاء في هذا الباب إلى كل الرعية، حيث حرص الموحدون على تبليغ أفكارهم إلى كل مكونات المجتمع، حيث ترسل الرسائل باسم الطلبة موظفي الدولة الذين يطالبون بتبليغها للأشياخ ثم العلماء والعامة والقبائل في البوادي، كما خلق؛ منذ بداية الدولة، نظام بريد قوي يرتكز على الرقاصة وخضع لتنظيم دقيق وإصلاح مستمر[28].

ـ وإذا تتبعنا ما ورد في هذه الرسائل؛ بالرغم من تباعدها الزمني، نجده ينقسم إلى تيارين: تيار أفقي يمثل الثبات والهيكل الأساسي للإصلاح الموحدي، وتمثله الأفكار التومرتية بداية بالعقيدة (التوحيد) ومرورا بالعبادات (تأتي على رأسها الصلاة وما يصلحها ويتبعها) والأخلاق ومكارمها ووصولا إلى السياسة التي يلخص التعاطي معها في مبدإ الحسبة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) الذي ركز في البداية على حرب المرابطين وإظهار عيوبهم ثم صار يتوجه إلى المخالفين للنظام

26-انظرالنجار عبد المجيد، المرجع السابق، ص.113-115 و العلام عبد الله،الدعوة الموحدية، دار المعرفة، القاهرة، 1964، ص. 215-218 وحركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد، البيضاء، 1984، ج1، ص. 256 .

27-ابن عذاري، المصدر السابق، ج4، ص.68.

28-توجد رسالة لعبد المومن تنظم وظيفة الرقاصة انظر رسائل ديوانية موحدية، ص. 26_28.

الموحدي والخارجين عليه والموظفين الفاسدين ثم مسألة المهدوية وعصمة المهدي. وهذه أمور اعتاد الحكام الموحدون التأكيد عليها في المناسبات الحاسمة مثل بيعة الخلفاء الجدد وانضمام مناطق جديدة إلى الدولة وإخضاع متمردين وعودتهم إلى أحضان الدولة. فهي بمثابة لازمة للنظام السياسي الموحدي وتأكيد على الفكر التومرتي الذي كان الإطار السياسي والإيديولوجي للدولة. وتيار عمودي متغير ومتجدد انطلق من النواقص التي تلاحظ على أرض الواقع. وهمت الإدارة (عبد المومن) ومسألة الإعدام (عبد المومن وأبو يعقوب) والخمر (المنصور) والمهدوية (المأمون).

الإصلاح مهمة مقدسة ودائمة للدولة الموحدية وفي كل الأوقات ويخضع لتجدد مبني على الإجتهاد ودون التقوقع في أفكار المؤسس مع أنها ظلت الموجه الرئيسي.

خاتمة

تميزت الدولة الموحدية بمشروعها الإصلاحي الطموح والشامل لمختلف الميادين من سياسة وعقيدة ومجتمع وأخلاق وإدارة. وأهم ما يميز هذا المشروع هو قابليته للتطور والتغير مع تقدم عمر الدولة، حيث ظلت عملية التحسين ملازمة له تبعا للمتغيرات السياسية والاجتماعية. وكان للخلفاء الدور الكبير في التغير من خلال الرسائل التوجيهية التي يصدرونها في مختلف المناسبات وخاصة عند البيعة أو ضم مناطق جديدة أو إخماد ثورة. وتكشف هذه الرسائل من جهة محدودية تطبيق الإصلاحات بالرغم من صرامة الدولة إذ وجد المجتمع طرقا للإفلات من قبضتها ورقابتها، ومن جهة ثانية المرونة التي تميز بها الفكر الإصلاحي الموحدي بالرغم مما يقال عن صلابته.

التصور الموحدي للإصلاح

ملخص المقال

يدور المقال حول موضوع الإصلاح في الدولة الموحدية والتطور والتغير الذي عرفه على امتداد عمرها. وينطلق من سبع رسائل ديوانية صدرت عن المهدي وأربعة عن خلفائه. وقسمت إلى قسمين، ركز الأول على ما أورته هذه الرسائل من إصلاحات تروم تثبيت أسس الدولة الموحدية الأساسية، ودار الثاني حول التطور الذي عرفته بعض الإصلاحات خاصة الإدارة وتنفيذ أحكام الإعدام ومراقبة الخمر ثم مسألة المهدوية والعصمة. وكانت الخلاصة الأساسية من الدراسة هو مرونة وتغير موقف الموحدين من هذه المواضيع تبعا للوقائع والأحداث اليومية مما يبرز الواقعية السياسية التي ميزت هذه الدولة، وكذلك محدودية تعاطي المجتمع والتزامه بالمبادئ الإصلاحية.

Le présent article discute de la question de la conception almohade de la réforme, son développement et les changements qu'il a connu au long de la vie de cette dynastie. L'étude se base sur sept messages officiels émis par al-Mahdi et quatre Califes de ses successeurs. L'article est divisé en deux parties, la première se concentrant sur les réformes qui ont l'intention d'installer les bases fondamentales de l'État almohade, la seconde s'intéressant au développement et au changement qui ont affecté certaines réformes; à savoir l'administration, les procédures de l'exécution de la peine de mort, le contrôle de vin, puis la question de Mahdisme et d'Infaillibilité. La principale conclusion qu'on a tirée de cette étude est la flexibilité et le changement continu des attitudes des Almohades vis-à-vis de ces questions en fonction des faits et des événements quotidiens ; ce qui montre clairement le réalisme politique qui a caractérisé cet état, ainsi que l'utilisation limitée de la communauté et son engagement envers les principes de la réforme.

This article discusses the issue of the Almohad design of reform, development and the changes it has experienced throughout the life of this dynasty. The study is based on seven official messages from al-Mahdi and the four Caliphs his successors. The article is divided into two parts, the first focusing on reforms that intend to install the fundamentals of the Almohad state, the second concerned with the development and change that affected some reforms; namely the administration, the procedures for the execution of the death penalty, wine control and the issue of Mahdism and Infallibility. The main conclusion we have drawn from this study is the flexibility and the continuous change of attitudes Almohad vis-à-vis these issues based on facts and daily events; which

clearly shows political realism that characterized this state as well as the limited use of the community and its commitment to the principles of reform.

Este artículo aborda el tema del diseño almohade de la reforma, el desarrollo y los cambios que ha experimentado a lo largo de la vida de esta dinastía. El estudio se basa en siete los mensajes oficiales de al-Mahdi y los cuatro califas sus sucesores. El artículo se divide en dos partes, la primera se centra en las reformas que pretenden instalar los fundamentos del Estado almohade, la segunda interesadas en el desarrollo y el cambio que afectó a algunas reformas; a saber, la administración, los procedimientos para la ejecución de la pena de muerte, el control del vino y la cuestión de Mahdismo y la infalibilidad. La principal conclusión que hemos sacado de este estudio es la flexibilidad y el continuo cambio de las actitudes almohade vis-à-vis estas cuestiones sobre la base de hechos y acontecimientos diarios; lo que muestra claramente el realismo político que caracteriza este estado, así como el uso limitado de la comunidad y su compromiso con los principios de la reforma.

%